جهود الاندلسيون في حفظ الهوية الإسلامية بعد تسليم مدينة غرناطة

(897هـ / 1492 م)

أ.د. وجدان فريق عناد

مركز إحياء التراث العلمي العربي / جامعة بغداد

Wjdan.fareeq@gmail.com

ملخص البحث :

من الطبيعي ان يأخذ مصطلح الهوية التاريخية العناية من قبل الباحثين، لكونه يتعلق بركن أساس تقوم عليه الدولة، فضلاً عن كونه من العناصر الجامعة لأي مجتمع، لذلك نجد الدول تسعى للحفاظ على هويتها لكونها تدرك قيمة التاريخ وأثره في حياتهم ، ومن هذا المنطلق حاول المجتمع الأندلسي بعد تسليم مدينة غرناطة المحافظة على تلك الهوية من الضيع والفقدان، ومن أجل ذلك عاشوا أبشع صور التعذيب ضد كل من يعتنق الدين الإسلامي ويستعمل اللغة العربية، ويرتدي الملابس الأندلسية التراثية، وتم تجريم كل من يمارس العادات والتقاليد الاجتماعية، تلك الأساليب يصح عليها وصف الوحشية، لأن محاكم التفتيش أدركت أن انتصارها الحقيقي على الأندلسيين لن يكون بدون القضاء على الهوية التاريخية .

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الأندلسيون، الهوية الإسلامية، غرناطة.

Andalusian efforts to preserve Islamic identity After handing over the city of Granada

Prof. Dr. Wijdan Fareeq Enad

Center Revival of Arab Science Heritage/ University of Baghdad

Abstract

It is natural that the term historical identity is taken into account by researchers. Because it relates to a cornerstone upon which the state is based, as well as being one of the unifying elements of any society, therefore we find countries seeking to preserve their identity because they realize the value of history and its impact on their lives. After the surrender of the city of Granada, Andalusian society tried to preserve that identity from loss and ruin, and for that reason they experienced the most horrific forms of torture against everyone who embraced the Islamic religion, used the Arabic language, and wore traditional Andalusian clothing, and criminalized everyone who practiced customs and social traditions. These methods can be described as brutal, because the Inquisition realized that their true victory over the Andalusians would not come without eliminating historical identity.

Keywords: Andalusians, Islamic identity, Granada.

المقدمة :

الباحث في تاريخ الأندلس بعد تسليم مدينة غرناطة يلمس بالشواهد تاريخية القسوة والوحشية التي عاني منها مسلمي الاندلس من قبل محاكم التفتيش التي لم تدخر جهدا في محاولتها للقضاء على المسلمين هناك ، فعاشوا مأساة إنسانية حولت حياتهم اليومية لكابوس مرعب فلم يكونوا يشعرون بالأمن حتى في بيوتهم ، فالوشاية من غير تحقيق تعد دليلا لتلك المحاكم من أجل اصدار اقسى عقوبات التعذيب التي تنتهي بالموت ، ولكن على الرغم من تلك القسوة بقى الاسلام واستمر المسلمون في اداء شعائرهم سرا في السراديب او الاماكن النائية ، وبتلك السرية تمكنوا من الاحتفاظ بهويتهم التاريخية ، تلك الهوية التي كانت عكازهم وسبب اساس في ايقاظ روح التحدي لديهم ضد اي محاولة لإذابتهم في المجتمع القشتالي من قبل تلك المحاكم التي سعت الى تحويلهم قسرا الى الدين المسيحي. ولكنها اكتشفت بعد ما يقارب من مائة عام من تسليم غرناطة انها عاجزة امام الدين الاسلامي فهم لايزالون مسلمين ومتمسكين بهوياتهم التاريخية، ويمارسون سراً الشعائر الإسلامية والعادات والتقاليد الاندلسية في مناسباتهم الاجتماعية.

هدف البحث :- هدف البحث هو بيان أثر الهوية التاريخية التي تنتمي إليها المجتمعات ـ واثرها في تنمية روح الانتماء والتماسك المجتمعي.

مشكلة البحث :- يتناول البحث مشكلة الهوية التاريخية الإسلامية للأندلسيين ، تلك الهوية التي حاولت محاكم التفتيش القضاء عليها باستعمال اقصى وسائل التعذيب ، لانها أدركت اثر تلك الهوية في منح الاندلسيين روح القوة والارادة والصمود امام كل محاولاتها الوحشية .

هيكلية البحث :- ستكون الدراسة مقسمة على محورين هما :-

أولاً :- لمحة عن الحياة العامة للأندلسيين بعد تسليم مدينة غرناطة.

ثانياً :- جهود الاندلسيين في حفظ الهوية الإسلامية بعد تسليم مدينة غرناطة.

أولاً:- لمحة عن الحياة العامة للأندلسيين بعد تسليم مدينة غرناطة

معاهدة تسليم غرناطة (897هـ/ 1491 م) من تلك المعاهدات التي نظر إليها كمؤشر على نهاية حقبة زمنية تمثلت بالحكم الاسلامي[1]، إلا أن مكانتها التاريخية تتعدى ذلك، فهي الوثيقة التي ضمنت حقوق الأندلسيين بعد استسلام المدينة، وإن كانت تلك الحقوق حبراً على ورق. فكانت بنودها العكاز الذي يلجأ إليه الأندلسيين ضد السلطة الحاكمة للمطالبة بحقوقهم التي حفظتها لهم تلك المعاهدة .

[1] - ينظر :- ابن القوطية، أبو بكر محمد . تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت، 1957، ص ص110، 211 ؛ الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة، ج4، ص ص131-132؛ المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي(ت 647هـ) . المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963، ص114 ؛ ميكيل دي إيبالزا، المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، بحث منشور في : سلمى الخضراء الجيوسي ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، 1/ 233- 258.؛ مارغريتا لوبيز غومير، المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، بحث منشور في : سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، 1/ 267- 282.

فقد منحت تلك المعاهدة التي وقعت في (25 تشرين الثاني 1491م/ 21 محرم 897هـ)، ومنحت الغرناطيين جميع الحقوق الأساس الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وختمت بتوقيع الملكين الكاثوليكيين ونالت موافقة البابا، ولكن على أرض الواقع لم تكن إلا حبراً على ورق [1].

فبعد سقوط غرناطة عاشت الأندلس مرحلة ضاعت فيها الحقوق والواجبات، إذ تحول القشتاليون إلى جواسيس لمراقبة تحركات الأندلسيين، فهم أعداء الكاثوليكية، وعدّوا لغتهم العربية لغة نجاسة، وعاداتهم الاجتماعية تصرفات مشبوهة، وعاشوا غرباء في بلدهم مضطهدين ومراقبين، إلا أن قسوة الاضطهاد تختلف من مكان إلى آخر من غرناطة، إلى قشتالة، إلى بلنسية [2] .

بدأ الاضطهاد الاجتماعي بعد تسليم غرناطة بمحاولة استفزاز أهل غرناطة من خلال إعادة توزيع السكان [3]، فقد صدرت الأوامر بإبعاد من سكن المدينة في مدة قريبة من تسليمها، وجعلت حي البيازين مكاناً لسكن المسلمين، أما المناطق الأخرى من غرناطة فقد نقل إليها (400.000) قشتالي، وقد التزم أهل غرناطة بالسكن في المناطق المخصصة لهم، إلا أن ذلك لم يمنع من الاحتكاك مع القشتاليين، وكانت العلاقة بينهم غير ودية، لأن القشتاليين ينظرون إلى الغرناطيين بأنهم أعداء للقشتاليين والكاثوليكية، فضلاً عن ما كانوا يحملون من مشاعر الحسد للغرناطيين بسبب امتلاكهم الخبرة المهنية وارتفاع المستوى الاقتصادي [4] .

حتى أنهم أطلقوا على الأندلسيين الذين بقوا تحت الحكم الإسباني تسميات تحمل معنى الإهانة والتحقير[5] منها المدجّنين أو أهل الدجن ،(moros y marranos) ، وأبناء هاجر اللئام ، الكفارة ماومساو نسبة إلى الرسول الكريم (ص) [6]، وأطلق عليهم اسم أهل البدع [7]، ووصفوهم بالثعابين والضفادع والذئاب والعقارب السامة ، كانت تلك الصفات تطلق على جميع بقايا الأندلسيين على اختلاف ألوانهم أحراراً وعبيداً، وبيضاً وسوداً [8] .

[1] - لمزيد من التفاصيل ينظر: وجدان فريق عناد، معاهدة تسليم غرناطة 897 هـ/ 1491 م دراسة تاريخية، مجلة دراسات تاريخية، كلية التربية للبنات – جامعة البصرة، العدد 25، كانون الأول 2018، ص 49-66.

[2]- عادل سعيد بشتاوي ، الأمة الأندلسية الشهيدة تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2000 ، ص 158؛ ينظر كذلك :

Angel Galan Sanchez , Una sociedad en Transicion Los granadinos de mudéjares a moriscos ,Granada, 2010, p.133-140, Rachel Arie, Espana Musulmana siglos v111-xv, Barcelona, 1993،,p.169-200.

[3] - يعد إعادة توزيع سكان غرناطة من أول الانتهاكات لمعاهدة التسليم التي نصت على " تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ..." ينظر:المقري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1041هـ). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، د.م ، د.ت، 4/525-526؛ ينظر كذلك: مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار بني نصر، تحقيق محمد رضوان الدية، العرائش، 1940، ص41 ؛

Angel Galan Sanchez, op.cit, p.193- 195.

[4]- Angel Galan Sanchez, op.cit, p.26; Luis de mármol carvajal, Historia de rebelión y castigo de ios moriscos del Reino de Granada،Madrid, 1876 , p. 193-201.

[5] - عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص ص32، 127-128 ، 160 ؛

Luis del mármol Carvajal, op.cit, p. 60-65 .

[6]- بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش، بحث منشور في : عبد الجليل التميمي ، الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492- 1992م منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1993، ص2/ 72-73.

[7] - المرجع نفسه ، 73/2.

[8] - بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، 72/2.

كما حظرت السلطة القشتالية على الأندلسيين الوظائف العسكرية والحكومية والمدنية، واشترطت لمن يعمل فيها تقديم شهادة تثبت نقاء الدم من الدماء الأخرى، كدماء اليهود والمسلمين، أو تقديم ما يثبت كونه من النصارى القدماء أو ينحدر منهم مباشرة، لذلك كان معظم الأندلسيين يعملون في المهن والحرف المختلفة[1].

وبعد فشل الثورة الأندلسية الأولى أصدر فرناندو عام 1508م مرسوم ملكي يمنع الأندلسيين من استعمال اللغة العربية وممارسة التقاليد والعادات العربية الإسلامية[2]، فكان يعدّ من يغني أو يعزف على آلة عربية بأنه كافر، ومن يطبخ على الطريقة الأندلسية لاسيما الكسكس فإنه يعاقب عقاباً شديداً، ومن يتزوج من الأقارب يعدّ كافراً، ومنع استعمام أي مصطلح أندلسي قديم في كلامهم، ومنع الأندلسيين من لباسهم التقليدي ومأكولاتهم وترتيب أثاث منازلهم بطريقة آبائهم، وإجبارهم على شرب الخمر وأكل الخنزير وعلى جعل باب المرحاض على شكل باب المسجد ويكتب عليه مسجد (mezquita) [3].

وصدر قانون عام 1513م يمنعهم من التجول في أنحاء اسبانيا أي الإقامة الجبرية [4]، إلا أن المرسوم لم يأخذ حيز التنفيذ الفعلي، لأن فرناندو كرس جهوده لتثبيت أركان مملكته وصراعه مع فرنسا، فضلاً عن عدم إثارة النبلاء الذين يعتمدون على الأندلسيين في إدارة أراضيهم الزراعية.

وفي عهد كارلوس الخامس وعد بعدم التدخل في شؤون الأندلسيين كمكافأة على موقفهم المؤيد له خلال ثورة المدن 1520-1522م[5]، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، وصدر عام 1518م قانون يعاقب وبشدة كل من يساعد الأندلسيين من أصل مسلم بالوصول إلى الأراضي المكتشفة حديثاً، وفي عام 1522م أصدر كارلوس الخامس قانون يمنع المسيحيين من أصل عربي من دخول أمريكا [6].

وفي سنة 1525م صدر مرسوم يؤكد على التشدد في تطبيق الأمر الملكي الصادر عام 1508م، وأضاف إليه محظورات جديدة، ولم ينفع اعتراض زعماء غرناطة على المرسوم لأن اللجنة التي شكلها برئاسة رئيس أساقفة قادس للنظر في مطالب الأندلسيين أوصت بتأسيس محكمة للتفتيش في غرناطة، والتشدد في تنفيذ الأوامر الملكية الصادرة في سنة 1508م و1525م، وأخذت التوصيات التي وضعتها اللجنة محل التنفيذ في العام التالي، والتي تضمنت منع استعمال اللغة العربية في الحوار، ومنع ارتداء الملابس الأندلسية، ومنع الختان للأولاد، ومنع طلاء الأظافر بالحناء، وإجبارهم على أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، وأكل لحوم الحيوانات التي تموت طبيعياً دون ذبحها، وغيرها [7].

[1] - عادل سعيد بشتاوي ، الأمة الأندلسية الشهيدة ، ص ص 156-157 .

[2] - بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، 2/ 73 ؛
Angel Galan Sanchez, op.cit, p.201-205.

[3]- بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، 2/ 73؛ ينظر كذلك :
Angel Galan Sanchez, op.cit, p. 189-223.

[4] - بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، 73/2.

[5]- في عهد كارلوس الخامس ثارت المدن ضده لأسباب مختلفة منها، سياسته التي سببت التذمر الذي تحول إلى سخط شعبي، فاندلعت ضده الثورة في مدن متعددة، وانقسمت اسبانيا بين المؤيد والمعارض لحكمه، ولكنه تمكن من القضاء عليها في عام 1522 . ينظر :-
Luis del mármol Carvajal, op.cit, p.299-234

[6]- بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، 73/2.

[7]- Angel Galan Sanchez, op.cit, p.229- 254.

وفي عهد كارلوس الخامس وضعت لائحة خاصة تحدد فيها أنواع التهم التي ستوجه للأندلسيين، وقام المحقق العام الفونصو مانريك بتلك المهمة، ووضعت اللائحة في الأماكن العامة[1].

فزاد التشدد والتضييق على الأندلسيين حتى أقدمت محاكم التفتيش على إحراق أول مجموعة منهم في عام 1529م، فأصابهم الذعر والخوف، ومن أجل تخفيف تلك الشدة والقسوة لجأ زعماء غرناطة إلى التفاوض مع مستشاري الملك كارلوس واتفقوا على تخفيف الضغوط مقابل دفع الأموال كضرائب ورشاوي إلى السلطة المدنية ومحاكم التفتيش[2].

ثم جاء عهد فيليب الثاني وأصدر سنة 1567م مرسوم ملكي كان أكثر المراسيم الملكية قسوة وأصر فيليب الثاني على تنفيذه مهما كانت النتائج ، فهذا المرسوم أكد ما جاء في المرسوم الملكي الصادر سنة 1502م من عدم استخدام اللغة العربية ، وزاد عليه فرض تعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات، ومنع الوضوء، فأستعاض الأندلسيون عنه بالاستحمام، فجاء مرسوم فيليب ليمنع الأندلسيين من دخول الحمام، وأجبر الأندلسيون على إتمام مراسيم الزواج والولادة والموت وفق الطقوس الكاثوليكية، وفرض حضور قابلة قشتالية في ولادة الأطفال الأندلسيين ، ومنع الختان لأي سبب، كما فرض إبقاء الأبواب مفتوحة، وحظر ارتداء الملابس الأندلسية ومنع الوقوف باتجاه القبلة، ومنع الزواج من أكثر من امرأة واحدة، ومنع استعمال النساء للحناء، وحرم عليهم اللجوء للكنائس طلباً للأمان ، وفرض على الأندلسيين دفن موتاهم في نعوش مغلقة وفق التقاليد القشتالية [3].

وفي عام 1591م صدر مرسوم أجبر الأندلسيين على دفن موتاهم في ساحات خصصت لهم بجوار الكنائس مع المسيحيين، وقبل ذلك كانت لهم مقابرهم الخاصة، ثم صدر قانون آخر يجبرهم على دفن الموتى داخل الكنيسة، فقدموا طلب لفيليب الثالث عرضوا فيه (30) ألف دوقة ذهب مقابل السماح لهم بدفن موتاهم حتى لو في المزابل، ولكنه رفض الطلب وأصر على تنفيذ قانون الدفن في داخل الكنيسة، التي كانت تنبش قبور الأموات الذين يتهمون بعد موتهم بالارتداد عن الكاثوليكية وتجمع عظامه في كيس وتحرقه في احتفال وسط المدينة، ومنذ نهاية القرن السادس عشر لم تكن عقوبة الحرق تقتصر على المرتدين، بل شملت من يحاول الهروب إلى المغرب أو فرنسا، ومن يقرأ الكتب العربية، وكانت العقوبات تشمل عائلة المتهم، فقد كانت تجبرهم على ارتداء لباس العار (san benito) لمدة طويلة وهو عبارة عن رداء ليس فوقه شيء، مرسوم عليه صليبان باللون الأصفر من الأمام والخلف [4].

وبلغ عدد الأندلسيين الذين حكمت عليهم محاكم التحقيق العقوبات والغرمات 271.150 شخصاً، والذين أحرقت تماثيل رمزية لهم لأنهم تمكنوا من الهرب والاختفاء (17.659) شخصاً، فكان المجموع 303.362 أندلسي وأندلسية، ويذكر أن في مدينة مرسية تم حرق 132 شخصاً ومعاقبة 227 بعقوبات مختلفة خلال الأعوام 1557- 1563، وفي طليطلة خلال الأعوام 1575-1610 كان عدد ضحايا الأندلسيين المتهمين بممارسة الشعائر الاسلامية (190) شخصاً، وأصدرت

[1]- Liorente, Juan Antonio, Historica critica de la inquisición de Espana , v.1,p, 1/240-248; Francisco J, Moreno diaz, Los Moriscos de la mancha sociedad economía y modos de vida de una minoría en la castilla moderna, Madrid, 2009, p.254-270.

[2]-Luis del mármol Carvajal, op.cit, p. 69 .

[3] - عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص ص 151-152 ، ص 162 - 163 .

[4] -Liorente, Juan Antonio, op.cit, 2/ 287.

محكمة التفتيش في طليطلة سنة 1728م عقوبة الحرق بحق (73) شخصاً من نسل الأندلسيين بعد سنة من السجن والتعذيب، بتهمة الهرطقة بعد مداهمتهم في أحد المنازل وهم يؤدون الصلاة [1] .

وكانت الأحكام التي تصدرها تلك المحاكم نهائية غير قابلة للاستئناف، ويجب تنفيذ الحكم من قبل السلطة المدنية خلال خمسة أيام ، فقد أمرت بإحراق الآلاف، فضلاً عن عشرات الآلاف الذين حكمت عليهم بالسجن المؤبد أو العمل في سفن القواديس مدى الحياة، وعاش ألوف منهم تحت شعور الاضطهاد والقهر والفقر وتقييد الحريات[2]. عاشوا كأقلية مقهورة بين غالبية متسلطة تنظر اليهم كأقلية كافرة للكاثوليكية وعدوة للسلطة، فلم يشعر الأندلسيون بالأمان بينهم، وكذلك القشتاليين إن وجد بينهم أندلسي، وكان من مصلحة السلطة والكنيسة ومحاكم التفتيش أن تعمل على إبقاء العداوة والشكوك بينهم [3].

ثانياً :- جهود الاندلسيين في حفظ الهوية الإسلامية بعد تسليم مدينة غرناطة.

نتيجة لتلك القسوة حاول الأندلسيون الحصول على المساعدة، لذلك لجأوا إلى الفقهاء في المغرب للحصول على رأي فقهي حول إجبارهم على اعتناق المسيحية من قبل محاكم التفتيش ، وعلى أكل المحرمات، وعدم السماح لهم بممارسة الشعائر الإسلامية، فكانت فتوى الفقيه أحمد الونشريشي[4] لهم بمغادرة الأندلس . بينما فتوى الفقيه أحمد بن جمعة الوهراني [5] التي صدرت في رجب سنة 1504م نصت على أنهم يمكنهم دفع الأذى عندما يكونوا مجبرين على ترك دينهم جهاراً، ويحتفظوا بعقيدتهم في قلوبهم حتى تحين الفرصة للتخلص من العدو، وحثهم على الصبر والمثابرة والنضال وزودهم بالمعلومات الفقهية بعد أن فقدوا كتبهم ومعظم فقهائهم، وكيفية العمل السري، وكانت فتوى الوهراني هي الحل المناسب للأندلسيين، فأصبحوا يطبقون أوامر الكنيسة، محافظين على عقيدتهم سراً، محاولين عدم جلب الانتباه إليهم، ومع ذلك لم يسلموا من التعذيب والتشريد والقتل [6] .

وأمام هذا القهر الديني واستعمال أساليب القوة لجأ الأندلسيون من أجل الحفاظ على دينهم إلى إخفاء إسلامهم، وممارسة الشعائر الإسلامية بسرية تامة[7]، مع السعي الحثيث إلى التظاهر بالاندماج مع

[1]- Francisco J, Moreno diaz, op.cit, p.341-359.
عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص ص 267- 268 .

[2]- David Levering Lewis ,God's Crucible Islam and Making of Europe 570-1215, w.w.norton , New York- London p.224 .

[3]-Angel Galan Sanchez, op.cit, p.49,90

[4] - كانت الفتوى التي أصدرها الونشريشي تنص على أنه كلما أحتل العدو أرض إسلامية وجب على أهلها الخروج منها ، ينظر : الونشريشي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ص ص138-139 ؛ محمد رزق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16و17 الميلادي، الدار البيضاء، 1989 ، ص ص148-149 .

[5]- الوهراني : هو محمد بن أحمد بن جمعة المغراوي الوهراني . ينظر : محمد رزق، الأندلسيون وهجراتهم، ص150؛ ليونارد باتريك هارفي، تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، بحث منشور في: سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، 327/1 .

[6]- بلقاسم درارجة ، الاندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، ص ص 76-77 .

[7]- عبد اللطيف محمد سرى ، الهوية الإسلامية للموريسكيين من خلال الأدب الالخمياد و ، بحث منشور في : عبد الجليل التميمي ، الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492- 1992م منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 2، 1993/152؛
Mercedes Garcia Arenal op.cit, p.61.

المجتمع حولهم [1] . لقد كان الأندلسيون مجبورين على التظاهر بالتنصر، وهم في الحقيقة يخفون الإسلام ويسخرون ويستهزؤون من أساليبهم[2].

ووصل الأمر من الشدة والتضييق إلى إصدار مرسوم جعل الأندلسيين تحت المراقبة في الطريق والعمل والبيت، ولم يعد من حقهم إغلاق أبواب بيوتهم، فمن حق القشتالي الوقوف بباب البيت ومراقبة أهل الدار، وتشجيع الأولاد والبنات والأخوة على الوشاية بآبائهم وأخوانهم وجيرانهم، ومن خلال الوثائق الكنسية يبدو أن من بين التهم الموجه للأندلسيين اعتزازهم بعروبتهم، فكان ذلك سبباً كافياً لفرض العقوبات القاسية عليهم،[3].

ولابد من ذكر أدب الالخميادو الذي كان أحد أهم رموز تمسك الأندلسيين بدينهم، فمن خلاله عبروا عن المحن التي كان يتعرضون لها والتعذيب والقتل والتشريد وسلب الحريات والحقوق على يد محاكم التفتيش،[4] ، فمن خلال النصوص التي وصلتنا من ادب الالخميادو يبدو واضحا ان التعايش أصبح مستحيلاً، فالمسيحيين يؤيدون توحيد إسبانيا دينياً، والأندلسيين يصمدون بطرق خفية محاولين المحافظة على دينهم [5].

ولن ننسى جهود الفقية في تعزيز الهوية الاسلامية والصمود، فكان عنصراً أساس في ربط المجتمع الأندلسي وصموده، لأن واجباته لم تقتصر على الجانب الديني، بل شملت الجوانب الأخرى الاجتماعية والإنسانية، ويجب على الأندلسي التعلم في المدارس السرية ليكون فقيهاً، ويكون إماماً في المساجد السرية التي كانت موجودة، ولاسيما في الساحل الشرقي وغرناطة وقشتالة، فهو المسؤول عن جمع التبرعات والزكاة وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، وإقامة حلقات قراءة القرآن وعقود الزواج، والإفتاء في المشاكل التي تواجه الحياة العامة للأندلسيين، وكان له أثره في منحهم القوة المعنوية والنفسية للصمود أمام الاضطهاد، ومنحهم الأمل بالانتصار، وحثهم على التمسك بالفرائض الإسلامية وتعليمها لأولادهم كونه جزء من المقاومة، وكان يحرص على عقد اجتماعات ولقاءات بين الأندلسيين في بيته أو في بيت أحد الأندلسيين، من أجل قراءة القرآن والحديث وقصص الأنبياء والصالحين وتاريخ الأندلس، وقد عرفت السلطة ومحاكم التفتيش أثر الفقهاء في المجتمع الأندلسي فكانوا يلاحقونهم، وكان الاجتماع مع الفقيه أو زيارته أو استقباله جريمة كبرى، لذلك كان الفقهاء حريصين على تجنب إثارة الشكوك حولهم، ولكن محاكم التفتيش تمكنت من القبض على بعضهم وتعرضوا للتعذيب، فقد ألقي القبض على فقيه في بلدة أسكون من

[1]- miguel Angel de Bunes, los moriscos en el pensamiento histórico, Madrid, 1983, p.36;

ينظر كذلك : عبد اللطيف محمد سرى ، الهوية الإسلامية للموريسكيين من خلال الأدب الالخميادو، 2/ 154.

[2] عبد اللطيف محمد سرى ، الهوية الاسلامية للمورسكيين من خلال الأدب الالخميادو، 2/156-157 ؛ صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية، القاهرة، 1989، ص 25.

[3]- عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص ص 178،161-189، 269؛ لوي كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492-1640 مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين في أمريكا، ترجمة عبد الجليل التميمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر- تونس، 1983 ، ص 23-24؛ ينظر:-

London, 1961, p 65 , Plaidy, Jean , The end of the Spanish inquisition-

[4] عبد اللطيف محمد سرى ، الهوية الإسلامية للموريسكيين من خلال الأدب الالخميادو، 2/ 158؛ ينظر كذلك :

Vin cent Barletta, op.cit, p.2-29

[5]- Angel Galan Sanchez, op.cit, p.206؛

بلقاسم درارجة ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، 2/ 77.

مناطق قطالونيا كان يقرأ القرآن لجماعة من الأندلسيين، فحمل إلى مقر محكمة التفتيش ولم يخرج منها أبداً [1].

كذلك ديافو دي اركوس الذي اعتقلته محاكم التفتيش وأعدم، فقد كان يعقد جلسات لتفسير الآيات القرآنية، وينصح الأندلسيين على إخفاء دينهم وهويتهم، وعدم الاعتراف لمحاكم التفتيش مهما بلغت قسوة الأساليب المستعملة لانتزاع الاعترافات منهم، وكان هو الحامي لجماعات تروال التي بقيت في إسبانيا حتى سنة 1582م، والتي تمتعت بتنظيم داخلي ممتاز، وكان الفقيه يرأس هذه الجماعة، وهو يمثل القوة الدينية، وله دور الوزير، ويمثل رجل القانون والثقافة، وكانت جماعات أخرى تعمل على تقوية التعارف والإخاء الديني بين الأندلسيين، ومنذ عام 1525م كان لها دوراً سياسياً مهماً في التفاوض مع السلطة المسيحية لحماية الأقلية الأندلسية في منطقة بلنسية [2].

لقد حاول الأندلسيون الأوائل مقاومة القيود التي فرضت عليهم بكل المستطاع والممكن، واستمرت الأجيال المتعاقبة على المنهج ذاته، ولكنهم وجدوا أنفسهم يفقدون بالتدريج لغتهم كلغة للتواصل والمخاطبة، بعد ذلك الزمن الطويل من محاربة وتحريم اللغة العربية [3]، فاضطروا الى ترجمة القرآن الكريم والحديث النبوي والكتب الفقهية باستعمال الحروف العربية في الكتابة، وذلك من حرصهم على المحافظة على شعائرهم وعاداتهم وتقاليدهم، فاستمروا بالتخاطب فيما بينهم سراً بالعربية المحكية، وإن كان قسم كبير لا يعرف كتابة العربية، واختلطت عاداتهم، وانتشرت الأمية والأمراض، عاشوا محرومين من العيش في بيئة نظيفة، ومنعوا من العمل بالتجارة والمهن، فلم يكن أمامهم غير أن يعملوا حمالين وفلاحين بالسخرة أو بأجر رمزي، وممنوع عليهم حمل السلاح الذي هو من مظاهر الحرية، فممارستهم لأبسط الحقوق تجعلهم مارقين وأعداء [4].

ومع تلك القسوة والوحشية الا ان هناك جانب آخريعكس جهود هم من اجل الحفاظ على هويتهم الاجتماعية الاسلامية بعد سقوط غرناطة فهم رغم كل الضغوطات التي كانت تمارس ضدهم حاولوا المحافظة على المرح في حياتهم بالقدر الذي سمحت لهم الظروف العامة، فكانوا ينظمون حفلات الرقص والغناء والطرب، وكانوا يجدون الطريقة للاحتيال على المراسيم المفروضة ضدهم، فهم بعد أن يحتفلون وفق الطقوس الكنسية يعودون إلى بيوتهم ويحتفلون وفق العادات والتقاليد الأندلسية، فإن عمدوا أطفالهم عادوا إلى البيوت وغسلوا رأسه وسبعوا، وكانوا يغسلون رأسه برقاق الخبز، ثم يقرأ عليه الفقيه القرآن ويعطونه اسم عربي، ويلبسونه ثوب أبيض ويحتفلون بالرقص والغناء الأندلسي . وقد لجأ الأندلسيون إلى الحيلة من أجل تخليص أولادهم من التعميد، ففي إحدى القرى الأندلسية كانوا يعمدون مولوداً واحداً، وكلما جاء مولود جديد أخذوا الطفل المعمد سابقاً، ويظل الأندلسيون يستعيرون الطفل المعمد كلما رزق أندلسي بمولود جديد، ولم يتوجه أندلسي إلى القساوسة لطلب المساعدة حين يمرض أحدهم، وعندما يموت أحدهم يصلّون عليه ثم يذهبون إلى الكنيسة بحجة أن الموت حصل فجأة ولم يتمكنوا من استدعاء القسيس. وكان الصمت أحد أهم الأسلحة، لأن الاعتراف كان البداية للعقوبة، فكانت محاكم التفتيش ترسل عمالها

[1] - عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 29 ،302.

[2]- رجاء ياسين البحري ، دراسة فقهية دياقوس دي اركوس : صوت جماعات تروال لمحاكم التفتيش، بحث منشور في : عبد الجليل التميمي ، الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492- 1992م منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1993 ،235/2.

[3]- إغناثيون فيراندو فروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية، بحث منشور في: ماء العينين ماء العينين العتيق، اللغة العربية في إسبانيا، الرياض، 2015 ، ص68-69 .

[4]- إغناثيون فيراندو فروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية ، ص68-69؛ عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 294 .

إلى مناطق الأندلسيين للتأكد من تنصرهم وتلقي الاعترفات، وكانت مهمتهم تنتهي بسرعة لأن الأندلسيين كانوا لا يعترفون بارتكاب أي ذنب وخطيئة . بيد أن الأندلسيين في منطقة ميرافات القريبة من مدينة طرطوشة وكان رئيس الدير ضعيف السمع، فينتظرون دورهم للإعتراف له، وكانت محاكم التفتيش تعرف أن الأندلسيين اتبعوا مبادئ الكاثوليكية ومارسوا الطقوس النصرانية خوفاً من العقاب، فهم عندما يذهبون إلى الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف فإنهم يقدمون أنفسهم بأسلوب منظم لكنهم لا يعترفون بأي ذنب [1].

كانوا على تواصل فيما بينهم من خلال إقامة عدد من شبكات التواصل التي قد تكون مباشرة أو من خلال إرسال مبعوثين منهم إلى فرنسا أو العثمانيين لطلب المساعدة، وربما كان للعاملين منهم في النقل والتجارة دور فعال في ذلك التواصل، سواء في نقل المعلومات أو الكتب أو المساعدات المختلفة، كما كانوا يؤون إخوانهم المطاردين من قبل السلطة ومحاكم التفتيش، حتى يتم تهريبهم في القوارب التي تنطلق من جنوب الأندلس نحو المغرب أو الجزائر، أو عبر الجبال إلى فرنسا، ومنها يمكن لهم الانتقال إلى المغرب، أو إلى الأراضي العثمانية، ولم تكن المهمة سهلة، فالعقوبة هي الحرق أو الإعدام أو العمل مدى الحياة في السفن، لذلك كانت تجري بسرية تامة مع توقع العاملين فيها القبض عليهم، لذلك يجب الكتمان والتحفظ على كل المعلومات [2].

لقد كان الأندلسيون على الرغم من تظاهرهم بقبول التنصير، وبحكم الظرف التي يعيشون فيها في الأندلس حيث المراقبة والتضييق الدائم على كل ماهو أندلسي، إلا أنهم ظلوا محافظين على عقيدتهم، التي جعلت لهم حدود في التعامل مع الاسبان دون التمادي في الاختلاط، ومن يفعل ذلك يكون عليه مأخذاً، حتى أنهم يؤمنون بأن المسلم الذي مات بعد معاشرة مسيحي لمدة أربعين يوماً يكون مات على الكفر وأنه من أهل جهنم[3] .

وبعد ما يقارب من مئة سنة اعترفت محاكم التفتيش انها وصلت الى قناعة انها فشلت في القضاء على الاسلام وعلى الهوية التاريخية الاسلامية للأندلسيين فكان القرار الاخير هو طردهم من الاندلس فصدر القرار في شهر أيلول سنة 1609م ، وقد وجد الأندلسيون في قرار الطرد فرصة للتخلص من الجحيم الذي عاشوا فيه، حتى أنهم أظهروا الفرح والابتهاج [4].

وقد وصفت التقارير التي كانت ترسل إلى الملك فيليب الثالث ذلك، منها رسالة دي ربيره في 23 كانون الأول 1609م، وكان ذلك حال جميع الأندلسيين، حتى الأغنياء منهم، فقد عرض البقاء على أندلسي غني لديه أملاك كثيرة من مزارع للعنب والزيتون وحواكير وبيت كبير قدرت قيمته بـ 4.000 بيزة ذهبية، ونظرا لسلوكه الجيد طول 12 عاماً عرضت عليه السلطة البقاء، لكنه رفض وفضل الهجرة وترك كل ما يملك[5] .

[1] - عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 162، 300-302 .

[2] - ينظر عن المبعوثين الاندلسيين لطلب المساعدة الدولية :- عبد العزيز الأهواني ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة سنة 844هـ ، مجلة كلية الاداب - المجلد 16، ج1، مايو 1954، ص ص 46 ،113 ؛ عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين، زغوان، 1989، ص 11.

[3] - عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 298-300 ؛

Defourneaux, Marcelin, Daily life in Spain in the Golden Age, London, 1970 p. 83.

[4]- Archivo de las corona de Aragon, consejo de Aragon, Valencia, 607, folio 7, Octobre 1611 .

[5]- Archivo de las corona de Aragon, consejo de Aragon, Valencia, 607, folio 7, Octobre 1611 .

ولابد من ذكر عدم وجود إحصائيات دقيقة لعدد الأندلسيين المنفيين، ولا عن جميع الأماكن التي حملوا إليها، وكان آخر أندلسي منفي خرج من مدينة وادي شقورة الواقعة إلى الشمال الشرقي من مرسية على الساحل الشرقي من الأندلس عام 1613م [1].

الخاتمة :

توصل البحث المعنون" جهود الاندلسيون في حفظ الهوية الإسلامية بعد تسليم مدينة غرناطة(897هـ / 1492 م)" الى عدد من النتائج لعل من ابرزها :-

ان تمسك الاندلسيون بهويتهم التاريخية الإسلامية . هي السبب الذي جعلهم قادرين على الصمود امام وحشية محاكم التفتيش التي سعت للقضاء على كل من يختلف معها عقائديا ، وان تلك الهوية هي التي جعلت منهم كيان مميز متماسك على الرغم من كل محاولات اذابتهم في المجتمع القشتالي الجديد الذي ظهر بعد تسليم مدينة غرناطة .

ولما كانت الهوية اسس في بناء المجتمع المتماسك لذلك لابد من من الافادة من الدروس التاريخية . لبناء مجتمع قوي في الوقت الحاضر وذلك من خلال تعزيز روح الانتماء للجذور التاريخية التي تصلنا مع حضارة اشرقت بنورها على البشرية جمعاء . فضلا عن الايمان ان التعايش السلمي هو الحل للعيش بسلام في المجتمع المتنوع في الانتماء الديني والعقائدي .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً: المصادر

1- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، بيروت، 1978.

2- ابن القوطية، أبو بكر محمد . تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت، 1957 .

3- المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647هـ) . المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963 .

4- المقري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1041هـ). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطبيب، د.م ، د.ت .

5- مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار بني نصر، تحقيق محمد رضوان الدية، العرائش، 1940 .

6- الونشريشي، أبو العباس أحمد بن يحيى. المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت.

ثانياً: المراجع

7- صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية، القاهرة، 1989.

8- عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، زغوان، 1989.

[1] -Lapeyre, Henri, Geographie de I´Espagne Morisque, parís, 1959, p. 202.

9- عادل سعيد بشتاوي ، الأمة الأندلسية الشهيدة تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2000 .

10- لوي كارديك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492-1640 مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين في أمريكا، ترجمة عبد الجليل التميمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر- تونس، 1983.

11- محمد رزق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16و17 الميلادي، الدار البيضاء، 1989.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

12- Angel Galan Sanchez , Una sociedad en Transicion Los granadinos de mudéjares a moriscos ,Granada, 2010.

13- Archivo de las corona de Aragon, consejo de Aragon, Valencia , 607, folio26, 1609, 23 de Diciembre.

14- Archivo de las corona de Aragon, consejo de Aragon, Valencia, 607, folio 7, Octobre 1611 .

15- David Levering Lewis ,God's Crucible Islam and Making of Europe 570-1215, w.w.norton , New York- London .

16- Defourneaux, Marcelin, Daily life in Spain in the Golden Age, London, 1970.

17- Lapeyre, Henri, Geographie de I´Espagne Morisque, parís, 1959.

18- Liorente, Juan Antonio, Historica critica de la inquisición de Espana , v.1,p, 1/240-248; Francisco J, Moreno diaz, Los Moriscos de la mancha sociedad economía y modos de vida de una minoría en la castilla moderna, Madrid, 2009

19- Luis de mármol carvajal, Historia de rebelión y castigo de ios moriscos del Reino de Granada،Madrid, 1876 .

20- Mercedes Garcia Arenaly Fernado Rodriguez Mediano, Un Oriente Espnol los moriscos y el sacromonte en tiempos de contrarre forma, Marcial Pons Histroria, 2010.

21- miguel Angel de Bunes, los moriscos en el pensamiento histórico, Madrid, 1983.

22- Rachel Arie, Espana Musulmana siglos v111-xv, Barcelona, 1993.

رابعاً: البحوث المنشورة

23- إغناثيون فيراندو فروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية، بحث منشور في: ماء العينين ماء العينين العتيق، اللغة العربية في إسبانيا، الرياض، 2015.

24- بلقاسم درارجه ، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش، بحث منشور في : عبد الجليل التميمي ، الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492- 1992م منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1993.

25- رجاء ياسين البحري ، دراسة فقهية دياقوس دي اركوس : صوت جماعات تروال لمحاكم التفتيش، بحث منشور في : عبد الجليل التميمي ، الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492-1992م منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1993.

26- عبد العزيز الأهواني ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة سنة 844هـ ، مجلة كلية الاداب ـ المجلد 16، ج1، مايو 1954.

27- عبد اللطيف محمد سرى ، الهوية الإسلامية للموريسكيين من خلال الأدب الالخميادو، بحث منشور في : عبد الجليل التميمي ، الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492- 1992م منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1993.

28- ليونارد باتريك هارفي، تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، بحث منشور في: سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.

29- مارغريتا لوبيز غومير، المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، بحث منشور في : سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999 .

30- ميكيل دي إيبالزا، المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، بحث منشور في : سلمى الخضراء الجيوسي ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999 .

31- وجدان فريق عناد، معاهدة تسليم غرناطة 897 هـ/ 1491 م دراسة تاريخية، مجلة دراسات تاريخية، كلية التربية للبنات – جامعة البصرة، العدد 25، كانون الأول 2018.